4

الزواج وحكايات الماضي

باغتتنا أمي بقسوة ورحلت، حقيبةٌ في اليد ونواحٌ في القلب وغصةٌ في الحلق. غصةٌ رافقتها على مدى خمسين عامًا في مدن غريبة وهي تعيش مع ذكريات لم تفارقها، لبيت الطفولة لهذه الصحراء التي عبرتها ولكل الأمكنة التي لن تراها بعد اليوم.

أسترجع صورتها وهي تحفر الكوسى أو الباذنجان لتحضّر المحشي بالرز واللحم والبقدونس، جالسة أمام طاولة المطبخ وقد وضعت عليها صورة أبيها في زيّه الجليل. وحين كان البكاء يعنّ على بالها مثل طفلة صغيرة، تستحضر ذكرياتها فتنسال الدموع على وجنتيها كجداول. كان هذا غالبًا مايحدث بعد خناقة مع أبي، حين ينتقم منها هو المتحكم المطلق بالمنزل والمنتمي لطبقة اجتماعية أدنى من طبقتها. هي لم تكن سوى زوجة

ضعيفة ومُلامة في أغلب الأحيان، بعيدة عن أهلها وحماية أبيها المهيب وإخوتها. لم يكن أبي فظًّا حقًا بل مزاجيًّا ومستفزًا بسبب معاناته من تمييز اجتماعي. لم يكن زواجه من أمي غير صدفة من الصدف استغلها، كما يجب!

أمي كانت في صباها فتاة مرغوبة وعسيرة المنال لاسيما لمن في موقع أبي. كانت عائلتها تحتار في الاختيار، مزايدات محمومة عن الجدير بهذه الوردة، أهو فلان أم علان؟ في إحدى نوبات عناده، التي كان وحده يمتلك سرها، تقدم أبي طالبًا يد هذه الجميلة، ويا للمعجزة! تمّ القبول وكتب الكتاب على يد الشيخ فايز. حصل ذلك رغمًا عن كل أفراد العائلة، فما كان من بقية الإخوة إلا أن قاطعوا حفل العرس وخاصموا الشيخ ومعه أمي التي لم يؤخذ رأيها في كل هذه القصة، أما المقاطعة الكاملة فكانت من نصيب أبي. لم يستطع أحد من العائلة استيعاب هذا الارتباط ولا معرفة السبب الحقيقي الذي كان وراء موافقة الشيخ فايز. بيد أن الهمس لم يتوقف في كل مكان حول شقيقة أبي ذات الحسن الباهر والنظرات الجريئة المتحررة من كل حشمة. لعل الأمر يغدو أكثر وضوحًا حين نتذكر ما يعني هذا للشيخ، هو المعروف بشهواته الجنسية ورغباته المشتعلة!

كان أبي في حياتهما المشتركة الجديدة وأثناء كل مواجهة بينه وبين أمي يحسّ على الفور بأنه دخيل على بيئة يجهل تركيبتها. أمي تابعت تصرفها على أساس انتمائها الاجتماعي المتفوق وهذا على الرغم من فقدانها لأملاكها في

بير السبع. لم يكن هاشم سوى غريبًا لا يليق بها ولا بوسطها، إلا أنه كان، مع هذا، زوجها وكانت مجبرة بسبب تربيتها التقليدية والدينية على قبول عبودية هذا الزواج. في بداية الأمر لم تكن تتفوه بكلمة بل تكتفي برمي أبي بنظرة متعالية. كانت نظرة الازدراء تلك تجرحه في العمق، فتحوّلت شخصية هذا المسكين وصار مسيطرًا وحادًا مع أمي لدرجة كانت تدفعها لذرف الدموع الغزيرة والإجهاش ببكاء صامت ما يلبث أن يتحول بعض الأحيان إلى نحيب تحاول إخفائه وخنق صوته.

بعد الزواج مباشرة قرر أبي اصطحاب أمي للعيش مع عائلته، كان أهلها يهزأون ويعلقون بشيء من السخرية بأنه أخذها معه لتعيش مع النّوَر. لكن إخوته وأخواته سروا بالأمر، ليس بالطبع لوجودها بينهم بل لرؤيتها مهيضة الجناح متكلة عليهم، هي الغالية المتمناة والمتنازع عليها، ابنة آل السقا والشوا والغلييني.

عانت أمي الأمرين لكنها حسمت أمرها سريعًا، وبعد نجاحها بالقضاء على مخالب عائلة زوجها التفتت لمواجهة أبي. شحذت أسلحتها الأنثوية وجذبته إلى ملعبها لتواجهه بكل أنواع الحيل الماكرة والكلمات القاسية والمعسولة على حدّ سواء. كانت مواجهة استعملت فيها كل الأساليب وكان المسكين يقاوم في صراع الطبقات هذا. إنما لم يكن من النوع الذي يستسلم، فكان يتخبط في كل الاتجاهات دون أن يغفل بالطبع الاستفادة من قوته الواحدة الوحيدة: كونه ذكر! لقد كان الرجل والزوج، وهذا

ما لم تستطع أمي التشكيك به، أما هي فكانت المرأة والزوجة.

حين ترك أبي فلسطين في بداية الستينات سعيًا لتحسين وضعه الشخصي وبناء نفسه، لم يكن ذلك إلا ليواجه أمي وأهلها الأكابر. كان يريد فرض نفسه أمام نظراتهم المتغطرسة والجارحة وبناء علاقته مع أمي كزوجين. يا لأبي المسكين! كان يظن أنه بهذا يرسم مستقبلًا راسخًا لأسرته الصغيرة، لم يكن على دراية أنه سيجعلنا برحيله ندفع الثمن غاليًا، لقد خلعنا بتصرفه عن محور مركزي في حياتنا، فغادرنا بلدنا وللأبد.

هكذا، يذهب أبي للعمل في بلد نفطي غني، وتبقى أمي في غزة وشعور بالسعادة يملأها واحساس بعودة الروح يغمرها، وهاهي تجد نفسها من جديد في حضن أسرتها الغالية. كنت وأخي صغارًا حينها وخلال سنة عاشت أمي أحلى حياة معنا. كان شقيقها الأصغر عثمان مغرمًا بنا، يصطحبنا معه في سفرات طويلة إلى مصر التي كانت تعيش أمجادها آنذاك. كنا نقيم في الفنادق الفخمة ونتجول على ضفاف النيل ونركب المراكب التي تبحر بنا في نزهات مبهرة، عشنا لحظات لا تنسى من البهجة والمتعة مازلنا نذكرها.

كنا نجهل أثناء تلك الفترة كل ما يحيط بحرب 1948 وبيت النقب الذي أضاعته أمي وأسرتها ونعيش في غزة في منزل جدي القديم في حارة الزيتون، الأغنياء يحظون دائمًا بفرص أخرى! عملت في بيت جدي خادمات قدمن من مخيمات لاجئين نُصبت بسرعة حول غزة وسكنها فلسطينيون طردوا من بيوتهم خلال حرب النكبة.

كانت نظرة أمي والآخرين من حولها لهؤلاء الناس تعكس تفكيرًا طبقيًا لا يدير بالا لعوزهم أو معاناتهم! هذا مع أن أمي قطعت الصحراء معهم وتحملوا سوية طلقات الإسرائيليين في الحرب، ومرضوا معًا وتعرضوا للبرد والجوع والحرّ وعانوا من القيء والاسهال سواء وأفرغوا أحشاءهم في نفس الأمكنة، وفوق هذا يعانون من نظرة موحدة تجاههم من قبل اليهود فهم ليسوا سوى فلسطينيين تجب مطاردتهم بأي ثمن. لكن الفارق يكمن في أن أمي وعائلتها وصلوا غزة بعد شهرين من التيه ليجدوا بيتًا بانتظارهم، أما أولئك فلم يحظوا بمكان آخر وكانوا مطرودين من أماكنهم وحياتهم الماضية، يعيشون في البؤس، في الغبار، في المخيمات.

صباح أحد الأيام تسلمت أمي رسالة من أبي يطلب منها اللحاق به في جدة. كان يسكن شقة فاخرة واسعة تطل على الميناء ويعمل في أحد المصارف، أخبرها أنه وجد لها عملًا كمعلمة في مدرسة "الحنان" التابعة للملكة. فكرت أمي طويلًا، فهي وإن كانت محاطة في غزة بعائلتها الحبيبة ويحظى ولداها بالدلال من الخالات والأخوال، فإنها تبقى امرأة شابة... تشتاق لزوجها على الرغم من كل شيء. علاوة على ذلك كانت تدرك أن الشعور بالواجب الذي لُقن لها وهي صغيرة يملي عليها تربية أطفالها تحت سقف أبيهم. وقد يكون هذا الزوج وهذا الأب اجتهد ووجد الفرصة لينجح هناك. ولعلها تساءلت في أعماقها إن كانت تتشوق لعيش مغامرة زوجية حقيقة بعيدًا عن التزامات محيطها، وإن كان اكتشاف الخارج

لن يمنح علاقتهما نفسًا جديدًا بل وحبًا، قد يكون هذا ممكنًا، لم لا؟

قررت ترك غزة للعيش في جدّة مع أبي وأصرت جدتي على مرافقتنا. كانت تخشى بألا تتحمل أمي الطائشة، كما كانت تتهمها، المسؤولية فلا تنتبه لنا فيكون مصيرنا السقوط في الماء! غادرنا بالباخرة ومررنا بمصر وعبرنا البحر الأحمر قبل أن نصل إلى العربية السعودية. كان أبي ينتظرنا في ميناء جدة بكامل أناقته مرتديًا بذلة بيضاء ونظارات شمسية. كم كان مهيبا بلباسه وهيئته! لعله رغب بترك أثر في نفوسنا، وقد نجح. لكن، ما إن وقع بصره على جدتي حتى تبدلت تعابيره وشحب لونه! لم يتوقع مجيئها ولم ينبئه به أحد. كان واثقًا بقدرته على مواجهة نظرات أمي إنما لم يكن مسلحًا بعد بما فيه الكفاية لتحمل نظرات جدتي الأشد فظاعة. كل ما فعله حينها الكزّ على أسنانه والتزام الصمت. حين كبرنا أدركنا أن نظرة جدتي وأمي لأبي كانت مبالغًا فيها واكتشفنا أن عائلة أبي لم تكن أقل قيمة كما أوحي لنا إذ كانت معروفة وأن لم يكثر فيها الوجهاء فقد كثر فيها العلماء والمجاهدون.

كان أبي يعمل مديرا للحسابات الجارية في مصرف سعودي هام، وتجلى نجاحه في مهنته بالشقة الرحبة الجميلة التي استقررنا فيها. سُجلت وأخي في "دار الحنان"، روضة أطفال الملكة حيث كانت أمي تدرّس وحيث يدرس أولاد الملك وأقربائه وإخوته وأخواته. كنا من حين لآخر ندعى للحفلات التي تنظمها العائلة المالكة لمعلمي المدرسة فنصادف هناك مسز

روز واليزابيث وبيتي ومدرسات أخريات أميركيات وبريطانيات.

كانت أمي معلمة كفؤ فتمتعت بتقدير خاص من العائلة المالكة، ولهذا كان يسمح لنا أحيانًا بمرافقتها للقصر في فترات بعد الظهيرة، نجلس في قاعات واسعة أرضها رخامية وهواؤها مبرد، وتتشعب الأحاديث مع نساء العائلة من شقيقات الملك وخالاته وزوجاته وبناته وقريباته. كنّ يرتدين عباءات سوداء فخمة ويبدون كظلال متسللة حين يعبرن ممرات القصر، ولكن ما أن يدخلن مكانًا آمنا مخصصا للنساء فقط حتى يتبدل سلوكهن في التو واللحظة، يُرفع الحجاب فينسدل الشعر الأسود الغزير، وتُفكّ أزرار العباءة فتظهر ركبة بيضاء شفافة كألالماس. كنت ألف حولهن دون أن أبتعد عن أمي، ألتقط بعضًا من محادثاتهن، تصل أسماعي كلمات وعبارات عن رغبة الزوج المحمومة بهن وبالشقراوات الإنكليزيات والأميركيات على وجه الخصوص! كن ينظرن للمرأة الغربية كأنثى جُبلت خصيصًا للرجل بعريها وحريتها، كأنثى لا ترافق زوجها للعمل في البلاد النفطية إلا لغرض تحريض رغبات الرجال العرب!

أولئك الغربيات يأتين للمملكة على الرغم من صرامة قوانينها، هذا أقل ما يمكن أن يقال، إذ يعرفن أن عليهن تغطية رؤوسهن ما أن يخطين خارجًا، وأن عليهن تحمل المطوعين المكلفين بحماية "الأخلاق" في الشوارع بضربة سوط أو بلعنة. يلفّون المدينة ليل نهار باحثين عن خصلة شعر هاربة وثوب لا يغطي الكاحل، يصيحون بهن وبغيرهن كي يغطين رؤوسهن

ويستحين ويخفن الله. ومع صياحهم تنطلق ضربات السوط الخفيفة أو القاسية، هذا يعتمد على المزاج.

منظر النساء المرتديات الأسود بالكامل وهن يُضربن بالسياط في الشارع ظلت محفورة في ذاكرتي، ومع مرور الوقت وشيء من التخيل صرت أرى المشهد كلعبة متبادلة بين النساء والرجال. لعبة حبّ وشبق، رواح ومجيء، نفور وانجذاب، وشيء من مقاومة! ربما كان من الأفضل رؤية الأمور من هذه الزاوية فهذا المجتمع غريب بتناقضاته، بهؤلاء الرجال وضحكاتهم القوية واللزجة ونظراتهم الداعرة، وأولئك النسوة المحجبات منهن والسافرات وضحكاتهن الخفية وهن يضغطن على الشفاه من الألم بعد كل ضربة سوط. مجتمع مدهش بكل هذه الفخامة والإثارة على خلفية من الممنوعات. صورة متكاملة للوحة غريبة فاتنة هي تمامًا الصورة النمطية التي يحبها الغرب كثيرًا.

لم نبق طويلًا في العربية السعودية، ثمانية عشر شهرًا فقط. أصيب أبي بمرض نصحه الأطباء على أثره بترك البلد والهرب من مناخها الذي لم يناسبه.

إلى أين؟

العودة إلى فلسطين؟

كان ذلك مبكرًا بالنسبة لأبي، فوضعه المالي لم يستقر بعد، لذلك قرر الرحيل نحو مغامرة جديدة وستكون هذه المرة في الجزائر.